

# في افق السياسة العالمية

## مشكلة إيران

لو درى « زرادشت Zoroaster » الذى ظهر فى إيران قبل المسيح بألف عام تقريباً وبشّر الناس برسالة النور والحق ، أن النار المقدسة التى اتخذها رمزاً لعبادته ستفجر يوماً من سفوح الجبال وبطن الأرض عيوناً سائلة فيها نور ودفء ولها بأس شديد ، وأن القوة الغاشمة ستفيد يوماً من هذه العيون المتفجرة فتعرض بلاده وأهلها للقمع والعدوان . — لو درى « زرادشت » ذلك لآثر أن يحجف هذا السائل وأن تفيض تلك العيون فى قاع الأرض مستغفراً لأهله من خطيئتهم فى حق الآلهة على أن تذهب بلاده فريسة لآلهة النار والحديد فى هذا القرن العشرين !

وأول ما أنسلّ الناس إلى إيران فى هذا العصر الحديث لاستخراج زيت البترول كان فى بدء القرن العشرين حين حصل أحد رجال المال الانجليز من الحكومة الفارسية على امتياز استخراجِه لمدة ستين عاماً من مايو سنة ١٩٠١ ، وظل الرجل سبع سنين يحفر وينبش وينقب عن السائل النفيس ولكن بدون جدوى . وأخيراً فى سنة ١٩٠٨ عندما صدرت الأوامر فعلاً بوقف العمل وصل رجاله إلى نبع لا ينضب معينه عند « مسجدى سليمان » فى الجنوب الغربى من إيران . فتشجع الرجل وعأوده نشاطه ، وأخذت حقول البترول تتسع قليلاً قليلاً ، والآبار تكثر شيئاً بعد شئ ، والإنتاج يتضاعف رويداً رويداً ، حتى بلغ مبلغاً كبيراً ، وتكونت لاستنباطه الشركة الانجليزية الفارسية .

ولما رأت البحرية الانجليزية أن مصلحة الأسطول تقضى باستعمال البترول فى تسيير سفنه بدلاً من الفحم ، وكانت موارد الإمبراطورية البريطانية وعمالها تقصر عن إمداد الأسطول العظيم بكل حاجته من الوقود الأبيض ، عملت

الحكومة الانجليزية على ضمان مورد البترول من إيران فاشترت في سنة ١٩١٤ معظم أسهم تلك الشركة ؛ وبذلك تحول الامتياز من الفرد إلى الشركة ومنها إلى الحكومة ، وأصبحت إنجلترا منذ ذلك الوقت تعتمد على إيران في تزويد أسطولها بما يناهز ٢٠ ٪ من البترول الذي يلزمه .

وقد تكون مثل هذه الكشوف المعدنية في البلاد التي تعثر بحكوماتها وشعوبها مصدر ثروة وقوة لا يستهان بهما، على أنها في بلاد كإيران تعاقب عليها ملوك وحكومات ضعيفة حقباً طويلة من الزمن، لا تلبث هذه الكشوف أن تكون للأقوياء كالتصاع للجياع يتهافون عليها ويتسابقون إلى اقتناصها



ويتشابكون، ولكنهم في النهاية يأكلون إلى حد التخمّة، وصاحب القصة جائع قائم على خدمتهم، لا يملك من أمره قليلاً. وكذلك كان في إيران؛ فقد اقتضى كشف الزيت أن تقام معامل لتصفيته وتكريره، وأن توضع أنابيب وسكك حديدية وتمهد طرق وتلشأ مركبات لنقله، وأن تكون للشركة أوبالحرى للحكومة صاحبة الامتياز مراكز للرعاية والحراسة، لا في أماكن الآبار وحدها بل على طول الطرق والسواحل التي يمر فيها موكب البترول إلى الخليج الفارسي. ومن ثمّ نشأت للحكومة الإنجليزية هناك مصالح حيوية جعلتها تمد أخطبوطها الاستعماري إلى جزره وسواحله وموانئه لتجعل منه بحيرة إنجليزية.

وكانت روسيا وحدها في أول الأمر ترنو ببصرها نحو إيران جارتها الهزيلة المتخاذلة تريد أن تقص من أطرافها ما يتأخّم إمبراطوريتها الواسعة التي أنشأتها في وسط آسيا وغربها في أثناء القرن التاسع عشر. ولكن هزيمتها المنكرة أمام اليابان سنة ١٩٠٥ جعلتها تتراجع مؤقتاً وتعتد مع إنجلترا اتفاق سنة ١٩٠٧، وبمقتضاه بدأ الجانبان بأن أكدا احترامهما لاستقلال إيران وسلامة كيانه، ثمّ نسياً بتقسيمها إلى منطقتي نفوذ: الشمالية منها لروسيا والجنوبية لإنجلترا، وترك مابين المنطقتين أرضاً حراماً محايدة تأمن بها إنجلترا خطر التصادم الروسي. وقد فسر كلا الطرفين أن احترام الاستقلال لا يتنافى البتة مع السيطرة وثبتت النفوذ الاقتصادي والسياسي بجميع الوسائل مادامت جيوش الدولتين لا تحتل المنطقتين. ومع أن إيران كانت في ذلك الوقت قد استيقظت من سباتها وقامت بحركة دستورية أرغمت فيها الشاه على إعلان الدستور ودعوة المجلس الوطني إلى الاجتماع لإصلاح المفاسد التي شملت جميع مرافق البلاد، فإن عقد المعاهدة الروسية الإنجليزية، وما تلاه من تقسيم البلاد إلى مناطق نفوذ تجارية أو سياسية، قد خيب أمل الإيرانيين وجعلهم يمتقنون الروس والإنجليز جميعاً، ويتربصون بهم الدوائر حتى إذا بدأ المصلحون يضطلعون بأعمال الحكومة ويباشرون إصلاح الحالة، أهملوا رجال الحكومتين ولجأوا إلى الحكومات المحايدة يستعينون برجالها في وضع أسس الإصلاح، فجعلت كل حكومة من هذه الحكومات تقطع لنفسها ناحية من نواحي الإصلاح، فكان من نصيب الولايات المتحدة إصلاح مالية البلاد، وجاء البلجيكي ينظمون الجمارك، وتولى رجال السويد إنشاء هيئة قوية للشرطة وحراسة الأمن، واستخدم الطليان في تدريب الجيش، وإنشاء

الطرق . ولما كان الأمريكيون في مقدمة هذه البعثات أهمية إذ كانوا يشرفون على مالية البلاد أوجست روسيا خيفة من وراء الإصلاحات ، فأرسلت إنذاراً نهائياً إلى حكومة إيران تطالبها بطرد بعثة الولايات المتحدة ، وإلا زحفت بحيشها نحو طهران . فعز على الوطنيين الإيرانيين أن يذعنوا لإنذار روسيا ، ووقفوا في وجهها . ولو أن بريطانيا آذرت جانب الوطنيين ونصرت قضية الأحرار ضد استبداد الحكومة القيصريّة ، لازدهرت حركة الإصلاح في البلاد وباءت روسيا بالإخفاق والخذلان . ولكن روسيا وبريطانيا كانتا متحالفتين فلم تصنع بريطانيا شيئاً ، وزحفت روسيا فاحتلت جيوشها قزوین ومنها هددت طهران . وعندئذ سقطت حكومة الثوار وتولت الأمر حكومة رجعية ما لبثت أن حلت المجلس الوطني ، وأبعدت المستشار الأمريكي وأعوانه ؛ وبذلك صالحت الروس ، وعادت الحال في إيران سيرتها الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الأولى .

ولما انتهت الحرب كانت الثورة الروسية قد اندلعت ، واستنكر الثوار المعاهدات التي عقدها الحكومة القيصريّة مع الحلفاء ، فبطل العمل ضمناً بالمعاهدة الانجليزية الروسية بشأن إيران . وكانت ألمانيا قد خرجت أيضاً من الميدان مدحورة ، فأصبحت إنجلترا وحدها أمام المسألة الإيرانية ولا منافس لها ، فخيّل إليها أنها تستطيع تسوية علاقاتها معها على الوجه الذي يرضى مطامعها ، فعقدت معها في سنة ١٩١٩ معاهدة جديدة أكدت فيها النعمة التقليدية التي اعتادت الدول أن تفتتح بها معاهداتها مع الدول الضعيفة ، كتركيا في ذلك الوقت وكإيران ، فاستهلتها باحترام استقلال إيران ، وحفظ كيائها ، ثم نصت على شروط جعلت من إيران في حقيقة الأمر دولة تحت حماية بريطانيا في الوقت الذي كانوا فيه قد قيدوا اسم فارس في سجلات عصبة الأمم كدولة مؤسّسة . وفات بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى أن روحاً جديدة قد بدأت تسرى في إيران على أثر إعلان مبادئ ولسون وقيام الثورة البلشفية على حدودها ، وأن هذه الروح تتطلب سياسة جديدة تخالف السياسة الاستعمارية العتيقة التي اتبعتها بعد الحرب لتثبيت أقدامها بالقروض المالية وبتعيين مستشاريها وموظفيها وضباطها في الجيش والمالية وسائر مصالح الدولة . وكما بادت سياسة إنجلترا بالخسران في مصر والهند وإيرلندة بعد الحرب العالمية الأولى كذلك أصابها

الإخفاق في إيران . فاهى إلا فترة قصيرة حتى قامت وزارة جديدة في إيران استندت إلى حكومة الثوار في روسيا فضربت بالمعاهدة الانجليزية عرض الحائط ، وبدأت صفحة جديدة في حياة البلاد .

وكان البلاشفة في أول أمرهم حراساً على كسب عطف جيرانهم من الأتراك والأفغان والإيرانيين ليعوضوا بصدقاتهم ما فقدوه من ناحية أوروبا بعد أن قطع الحلفاء كل صلة بهم . ولذلك لم يكن غريباً أن تسخو روسيا مع الإيرانيين فتتزل لهم بمقتضى معاهدة سنة ١٩٢١ عن جميع ديونها وعن امتيازاتها وعمما كان لها في منطقة نفوذها من سكك حديدية ومهمات ، كما تزلت طبقاً عن معاهدة سنة ١٩٠٧ مؤيدة عزمها على عدم التدخل في شئون إيران أو المساس بحقوقها بأي شكل كان . وكانت نتيجة ذلك أن تشجع الإيرانيون فقاموا ضد الإنجليز وأبعدوا ضباطهم ومستشاريهم وموظفيهم معلنين فسخ معاهدة سنة ١٩١٩ وأصبحت روسيا بعد ذلك الحليفة المفضلة لدى الإيرانيين .

وكما أن خاتمة الحرب العالمية الأولى في البلاد المستضعفة قد أنتجت أبطالا أمثال سعد زغلول وديفاليرا وغاندى ومصطفى كمال — أولئك الذين أضاءوا الطريق أمام شعوبهم فوحدوا كلمتها وقادوها نحو الحرية والتحرر من نير الأجنبي تارة بالسلم وأخرى بالعنف وآناً بالصمت ، كذلك تمخضت الظروف التي تلت تلك الحرب في إيران عن بطل وطنى عظيم في شخص الشاه السابق رضا خان بهلوى الذى نهض بمعاونة أحد الزعماء الصحفيين الإيرانيين من ضابط بكتيبة القوزاق الإيرانية إلى وزير للحربية في سنة ١٩٢١ ثم إلى رئيس الوزارة في سنة ١٩٢٣

وكان هذا الوزير الجديد من القوة والصرامة وسمو الروح الوطنية بدرجة جعلته معبود الشعب والدكتاتور المتسلط على شئونه في آن واحد ؛ لذلك خشى مناوئوه الإقامة في إيران ، فمنهم من رحل إلى العراق كصديقه الزعيم الصحفى ومنهم من فضل الإقامة في أوروبا لينعم بمباهاجها كالشاه أحمد . وبذلك خلا الجو لرضا خان ، فبدأ في إيران عهد إصلاح لم تعرف البلاد مثله من قبل أو من بعد . وكان مصطفى كمال رائده في الحكم ومثله الأعلى ، فسار على نهجه في معظم إصلاحاته متحنباً منها ما كان يمس الدين واللغة والشعور القومى . فمن ذلك أنه أكثر أن يتوَّج نفسه شاهاً على إيران في سنة ١٩٢٥ بدلا من أن يعلن نفسه رئيساً لجمهورية

يقيمها من جديد وأنه أبقى على الإسلام ديناً للدولة وعلى علماء الإسلام المجتهدين وعلى الكتابة العربية وحروفها ، وسار في إصلاحاته الأخرى بروح العزم ، مستلهماً القوة من الشعب والجيش . وكان في مقدمة إصلاحاته النهوض بالجيش ، ونشر لواء الأمن والسلام في أرجاء الدولة ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية ، وإنشاء السكك الحديدية والمعاهد والكلليات والمصانع .

أما سياسته الخارجية فكان من الطبيعي بعد ما قاسته إيران أخيراً على أيدي بريطانيا أن يطرّد نحو العلاقات بينه وبين اتحاد السوفييت ، فوفد إلى إيران من روسيا عدد كبير من المهندسين والخبراء والصناع والفنيين ، وأخذت العلاقات التجارية تزداد وتقوى بين البلدين ، حتى بلغ نصيب روسيا ٤٠ ٪ من قيمة مجموع التجارة الخارجية لإيران .

وقد تأكدت الصلات السياسية بتجديد المعاهدة في سنة ١٩٢٦ . وكان من أهم ما نصت عليه تعهد روسيا لإيران برد الاعتداء عليها من ناحية أذربيجان وأرمينية ، وفي مقابل ذلك يصرح لروسيا بدخول قواتها البلاد إذا هاجمتها قوات من الجنوب وعجزت إيران عن ردها . وقد وثقت الصلات بين البلدين حتى أن ممثل روسيا في بلاط الشاه كان في رتبة سفير ، وهو امتياز لم تظفر به في إيران سوى تركيا وأفغانستان ومصر .

أما بريطانيا فقد توترت العلاقات بينها وبين إيران منذ البداية ، وظهر الخلاف جلياً في ثلاث مسائل : الأولى تمرد الشيخ خزعل صاحب « المحمرة » على خليج فارس ، وقد أبدل اسمها الآن وأصبح « حزام شهر » . وكان الشيخ معتزلاً بصداقة بريطانيا ، فرفض أن يذعن لرضا خان كما أذعنت سائر الولايات التي كانت تتمتع من قبل بقسط وافر من الاستقلال والفوضى في وقت واحد ، فأرسل إليه الشاه قوة أخضعتة وحملته أسيراً إلى طهران ، وحاولت الحكومة الانجليزية فك أسره فلم تغلج .

وأما الحادث الثاني فكان بسبب الشركة الإنجليزية الإيرانية لاستخراج البترول ، وكانت شروط العقد مجحفة بإيران ، فاتهز الشاه فرصة هبوط إيرادات الشركة في سنة ١٩٣٢ على أثر الأزمة المالية العالمية ، وأصدر قراراً بإلغاء شروط الشركة ، فقامت إنجلترا وقعدت وحشدت قطعاً من الأسطول في شكل مظاهرة بحرية في الخليج الفارسي لإرهاب الشاه ؛ ولكنه ثبت في موقفه فاضطرت

الحكومة الانجليزية إلى عرض موضوع النزاع على عصبة الأمم ، فاحتج الشاه بأن موضوع النزاع لا يخص الحكومة الانجليزية ولا مجلس العصبة ؛ إذ أن القضية محصورة بين الحكومة وإحدى الشركات . وأخيراً سوى الموضوع ودياً بعقد اتفاق جديد بشروط سخية لإيران ؛ إذ اشترط ألا يقل نصيبها عن ١٠٠٠٠٠٠٠ جنيه في السنة ، ودفعت الشركة مليون جنيه تسديداً لما عليها . وقد زاد إنتاج الشركة بعد ذلك ، ووصل نصيب الحكومة الإيرانية إلى أكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وبلغ الانتاج قبل الحرب الأخيرة ١٠٠٠٠٠٠٠ طن في العام .

وأما المسألة الثالثة فكانت بشأن « جزيرة البحرين » قرب الساحل الغربي للخليج الفارسي . وقد كانت هذه الجزيرة تابعة لإيران إلى قرب نهاية القرن الثامن عشر حين احتلها العرب . ولما بدت أهمية الخليج وظهر تنافس الدول بعضها مع بعض في سبيل التفوق فيه انحاز شيخ الجزيرة إلى بريطانيا ، فأعلنت حمايتها على الجزيرة إلى الآن . ولكن الحكومة الإيرانية لم تعترف بهذه الحماية ، وأخذ رضا خان يطالب بريطانيا برفع حمايتها ورد الجزيرة إلى إيران . والجزيرة من أهم القواعد البحرية لبريطانيا في هذه المنطقة . وأهل الجزيرة من العرب وبينهم إيرانيون ، ولا يمكن أن تتخلى عنها بريطانيا طوعاً .

وعلى رغم هذه الخلافات بقيت العلاقات بين إيران وبريطانيا مشوبة بروح العطف والتقدير من الجانبين . ودل الإنجليز على صفاء الجو بين الدولتين بإرسال بعثة شرف لتهنئة الشاه بمناسبة الاحتفال بزفاف ولي عهده في مارس سنة ١٩٣٩ .

وقد حرصت حكومة الشاه على أن تقوم علاقاتها مع الدول الشرقية على أقوم الدعائم . فقد سوت خلافاتها مع الأفغان ، وأخذت صلاتها مع العراق تتحسن وخاصة بعد أن انتهى الانتداب البريطاني عنها وقبِلت العراق عضواً في عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ وقد تأيدت الصداقة بزيارة الملك فيصل لطهران في ذلك العام نفسه . ولما استعصى حل مشكلة « شط العرب » الذي يفصل بين المملكتين عرض الموضوع على مجلس العصبة ، وتم الاتفاق في سنة ١٩٣٧ على أن يكون الشط حراً للسفن التجارية والحربية للدولتين وبقيت « عبدان » - وهي مركز تكرير البترول وشحنه - تابعة لإيران ، ورخص لكل من الدولتين

بأن تصرح لدولة ثالثة بدخول أسطولها بشرط إخطار الدولة الأخرى . أما صلات الشاه بتركيا فكانت على الدوام مشبعة بروح الولاء والصدقة وتعاهدت الحكومتان في سنة ١٩٣٤ ، وفي نفس تلك السنة حقق رضا خان أمنية طالما تأقت نفسه إليها بزيارة الرئيس أتا تورك في أنقرة . وقد توجهت جهود الحكومتين في توثيق الصلات بين دول الشرق الأوسط في سنة ١٩٣٧ بعقد ميثاق « سعد أباد » قرب طهران بين تركيا وإيران والعراق وأفغانستان . وفيه تأكيد لتبادل الصداقة بين المتعاقدين ، ووعد بعدم الاعتداء وبالتشاور فيما بينهم في كل ما يهم علاقاتهم الخارجية .

وعلى الرغم من أن الحرب الأخيرة قد وقفت عمل الميثاق كما وقفت ميثاق البلقان وغيره من المواثيق والمعاهدات الدولية ، فإن روح التعاون وتبادل المودة بين شعوب الشرق الأربعة ، قد أوجد لأول مرة في التاريخ الحديث شعوراً بالتضامن السياسي وإحساساً بالنضج والاستقلال عن دول أوروبا الكبرى ، وهو شعور لم يكن موجوداً من قبل . وليس من شك في أن ميثاق « سعد أباد » هو الذي أوجد النواة التي أنبتت ميثاق جامعة الدول العربية في أثناء هذه الحرب ، ولن يمضي وقت طويل حتى يتقارب الميثاقان .

أما مصر فقد جمع بينها وبين إيران رباط المصاهرة بين البيتين المالكيين ، وكانت الحفلات التي أقيمت بمناسبة زواج ولي العهد من الأميرة فوزية من أبلغ الدلالات على روح الأخوة والمودة التي بدأت تسود بين دول الشرق الأوسط وشعوبه .

وأخيراً تأتي ألمانيا ، وقد كان لظهور هتلر ومبادئه صدى بالغ الأثر في إيران ؛ فقد كانت حكومة الشاه رضا خان جماعية عسكرية في أساسها ومرماها . والإيرانيون يعتقدون أنهم سلالة الجنس الآري الذي نادى به هتلر وفضله على جميع الأجناس . وكان هذا مما دعا الشاه في سنة ١٩٣٥ أن يقرر تسمية بلاده باسمها القديم « إيران » وأن يخطر الدول بذلك . من هذه الأسباب لم تلبث العلاقات بين البلدين أن توثقت ، فأرسلت ألمانيا خبراءها الاقتصاديين والماليين والمهندسين ، وأنشأت لحكومة الشاه مصانع للأسلحة والذخيرة والحديد وبناء السفن ، وزودت الجامعة في طهران بعدد من الأساتذة والمستشرقين ، كما استقبلت في ألمانيا عدداً كبيراً من البعثات العلمية الإيرانية . وأخذت ألمانيا

من الحكومة امتيازاً لخطها الجوي إلى طوكيو ، وملأت السوق بالصحف والمجلات وكتب الدعاية وأشرطة السينما الألمانية .

وفي سنة ١٩٣٧ كانت إيران قد بلغت من المكانة وخطورة الشأن بين الدول مبلغاً دعا إلى اختيارها عضواً غير دائم في مجلس عصبة الأمم ، وقد ترأس ممثلها المجلس في يناير سنة ١٩٣٨ .

وقد أعلنت الحرب العالمية الثانية وإيران تنعم لأول مرة في تاريخها الحديث بحكومة وطنية مصلحة قوية ، وكانت صلاتها على خير مايرام مع أخواتها من دول الشرق ومع دول الغرب أيضاً ، اللهم إلا فرنسا ، وقد كان سبب النفرة بينهما حادثاً تافهاً حول لفظة « الشاه » باللغة الفرنسية ، وإلا بريطانيا وقد راعها كثرة عدد الألمان في إيران وما أرسلته منذ إعلان الحرب من مدنيين وسياح ، استعداداً للعمل ضد الحلفاء عندما تحين الفرصة . ومع ذلك فإن إيران لم تتردد في إعلان حيديتها عندما بدأت الحرب . ولما هاجمت ألمانيا روسيا في صيف عام ١٩٤١ عادت إيران فأكدت حيديتها مرة ثانية . ولكن ألمانيا بدأت تستغل انتصاراتها وتحض إيران على انتهاز الفرصة للتخلص من الدولتين الطامعتين في أراضيها وهما وبريطانيا وروسيا ، فثبث الشاه بالحيدة الدقيقة . وليس أدل على ذلك من أن إيران لم تتحرك عندما أعلن رشيد عالي الكيلاني ثورته العسكرية في مايو سنة ١٩٤١ ضد الحلفاء وتسلم مقاليد الحكم في بغداد .

غير أن روسيا كانت تعاني الأمرين من جراء إغلاق البحر الأبيض المتوسط والمضائق في وجهها ، ولم يكن أمام حلفائها لنجدتها سوى طريق البحر الشمالى المتجمد ، وهو طريق طويل مخوف بالأخطار ، ثم طريق الهند وإيران وهو طريق ممد ولكن لا سبيل إليه إلا باختراق أرض إيران وموافقة الشاه ؛ لذلك اشتد الضغط على إيران وجعلت روسيا وهي تقامى أشد الحن أمام الهجوم الألماني تحض بريطانيا على ضرورة احتلال إيران قبل فوات الفرصة . وقد بدءوا بأن طلبوا إلى الشاه طرد الألمان النازحين إلى إيران ، وعز على الشاه أن تضطره الدول إلى خرق الحيدة التي أعلنها وإغضاب ألمانيا ، فأجاب أنه عازم على إبعاد الأجانب جميعاً من إيران ، وفي هذا إشارة إلى إخراج الإنجليز الذين يعملون في الشركة الإنجليزية الإيرانية للبترول ، فلم يرق هذا الرد في نظر الحلفاء ، وقرروا

الزحف على إيران . وفي أغسطس سنة ١٩٤١ زحف الروس من الشمال واحتلوا أذربيجان ومقاطعات بحر قزوين ، وزحفت بريطانيا من الجنوب فاحتلت الأقاليم الجنوبية ، ولم يقو الجيش الإيراني على المقاومة أكثر من ثلاثة أيام فسقطت الحكومة وأساء الناس الظن بسياسة الحيدة التي اتبعتها الشاه ، ما دامت قد أدت إلى كارثة الاحتلال . وعلى ذلك تألفت حكومة جديدة موالية للحلفاء ، ونفى الشاه إلى جزيرة « موريشص » شرق جزيرة مدغشقر ، حيث مات في المنفى ودفن في مصر في العام الماضي .

وعلى الرغم مما أكده الحلفاء من أن احتلال البلاد كان لضرورة حرية مؤقتة ستؤول بانتهاء الحرب ، وعلى رغم ما جاء في قرارات مؤتمر طهران في نوفمبر سنة ١٩٤٣ خاصاً بإيران من أن الدول الثلاث المؤتمرة : روسيا وبريطانيا والولايات المتحدة متفقة على الاحتفاظ باستقلال إيران وسيادتها وسلامة أراضيها - على الرغم من ذلك كله فإن البلاد منذ احتلها الأجني وغاب عنها سيدها وقائدها والنافخ في روحها قد دبّت فيها عقارب التخاذل والقطيعة واضطرب جبل الأمن في الفياق السحيقة التي تفصل المدن والولايات بعضها عن بعض ، ولم تعد الولايات تحس بوطاة الرقابة ودقة الحراسة التي كانت تبديها الحكومة المركزية قبل الاحتلال ، وعلى ذلك بدت عوامل الانحلال التي نلحظ مقدماتها الآن .

ووجه الخطر في مشكلة إيران أن روسيا تعتبر بلاد إيران وما جاورها داخلة في منطقة نفوذها الكبرى ، وأن ضمان السلام وحسن الجوار في هذه المنطقة يفرض على روسيا واجبات قد لا تكلفها دولياً ، ولكنها تراها ضرورة حيوية ، لتأمين حدودها الممتدة إلى مسافات شاسعة ، ولزيادة الرخاء في ربوع جمهوريات السوفييت الصغيرة المنتشرة وسط آسيا وغربها . وهي لذلك تعمل الآن على أن يكون لها النفوذ الأول لدى حكومات هذه البلاد وشعوبها . وإذا كانت روسيا في بدء ثورتها قد زهدت في ضم هذه المناطق إليها ، لأنها كانت في شغل شاغل عنها ، ولأن الصناعة والحركة العالمية في تلك المناطق لم تكن قد ارتقت بعد بحيث يتيسر تحويل البلاد إلى مبدأ الشيوعية ، فإنها الآن وقد انقضى ربع قرن من الزمن تطورت فيه شئون هذه المناطق تطوراً صناعياً ملحوظاً على أثر كشف آبار البترول وزيادة إنتاجه واصطبغت فيه سياسة روسيا

الخارجية بالصيغة الاستعمارية ، لا ترى مندوحة من بسط نفوذها في هذه المنطقة إما بالضم وإما باحتضان حكوماتها الوطنية .

وعلى هذا الأساس سارت روسيا في سياستها في إيران منذ احتلت جيوشها الأقاليم الشمالية في أغسطس سنة ١٩٤١ ، فقد عملت فيها كأنها باقية أبداً ، فأنشأت حزب الجمهور أو الشعب ، وكان محظوراً ظهور الأحزاب في عهد الشاه السابق . وجعلت روسيا تناصر الحزب الجديد وتعزز جانبه ، حتى استطاع في ولاية أذربيجان ( وبها ثلاثة ملايين نفس من خمسة عشر في جميع إيران ) أن يقف في وجه حكومة طهران وأن ينشئ فيها حكومة ذاتية لها جمعيتها الوطنية وجيشها ولقتها ويريدها وسائر مصالحها .

وإذا كانت الأنباء تؤكد أن الأذربيجانيين لم يعلنوا انفصالهم تماماً عن حكومة طهران ، فلا شك في أنهم سائررون في هذا الطريق ، وأن نجاحهم سيفرغ غيرهم في الولايات الأخرى ، وخاصة مناطق الأقليات كالآكراد وما كان منها متاخماً لحدود اتحاد السوفييت مثل قزوين وجيلان وشمالي خراسان . ومتى استقلت أذربيجان واتخذت تبريز عاصمة ، فلا يبعد أن تبحث لها عن ميناء على الخليج الفارسي ؛ وحينئذ تبلغ روسيا مطعمها الأزلي في الوصول إلى المياه الدافئة سواء في أوروبا عن طريق المضائق والبحر الأبيض المتوسط أو في آسيا بسبيل الخليج الفارسي والمحيط الهندي ؛ ولا مفر حينئذ من تصادم المصالح الروسية والبريطانية .

ولا عبرة البتة بما أكدته روسيا من أنها لم تساعد ثوار أذربيجان حريياً ، فيكفي أنها منعت قوات طهران من قمع الفتنة ، وكانت حجتها أن مهمة روسيا تنحصر في حفظ النظام ، وأنها لو سمحت لقوات طهران بالتدخل لاضطرب النظام وسفكت الدماء . وفي اعتقاد روسيا أن حكومات طهران الرجعية هي من الضعف والفساد بدرجة تجعلها عاجزة تماماً عن إخضاع الثوار . لذلك اشترط الثوار ألا يرسلوا ممثلهم أمام المجلس الوطني لطهران إلا إذا أصلحت الحكومة . ومعنى هذا باللغة السوفيتية أن تكون الحكومة على وئام تام مع روسيا وملحقاتها من جمهوريات السوفييت .

والحكومات الضعيفة هي آفة هذا العصر ؛ فهي مدعاة لاضطراب الأمن وزعزعة الثقة في نفوس الشعب ، ومنها تنبت البذرة التي يتعهد بها رسل السوفييت

وأعوانهم حتى تنمو وتتكاثر وتؤتي الثمرة الصالحة للثورة . فلو أن الحلفاء الذين أذلوا حكومة إيران واستباحوا حرمة أرضها بالاحتلال قد كفروا عن ذنبهم في حق الديمقراطية الصحيحة بتشجيع الوطنيين والاختذ بيدهم والسير معهم لتحقيق الإصلاحات التي أقامها الشاه السابق ، لتماسكت الحكومة والشعب معاً ولا نسدت الثغرة التي ينفذ منها الأجنبي عادة إلى قلب الدولة . ولكن السياسة الدولية — كما قال الرئيس ترومان مرة — هي مجموعة مساومات بين الدول . وزجو ألا يكون الحلفاء قد قايسوا على إيران أو جزء منها ؛ فقد ترى روسيا أنها ما دامت تشترك مع الحلفاء وتتفاهم معهم في المسائل الدولية الكبرى التي تهمهم جميعاً فليس هناك معنى لأن يدقق معها الحلفاء في مسائل أقل شأنًا أو يناقشوها الحساب أمام مؤتمرات دولية . قد يتخرج فيها مركز السوفيت أمام العالم . وعلى ذلك يحتمل كثيراً أن تحاول الدول الثلاث الوصول إلى حل سريع لهذه المشكلة قبل أن يحين موعد جلاء الجيوش المحتلة في ٢ مارس المقبل ، وقبل أن تتألف جبهة معارضة لروسيا من الأتراك والإيرانيين وأنصارهم من ممثلي الدول الوسطى والصغرى . وهؤلاء إذا ما صرخوا بشكواهم في وجه روسيا أمام هيئة الأمم المتحدة هزوا أديم الأرض التي تقف عليها روسيا وحلفاؤها وهم يتساومون بشأن مصير الأمم الصغيرة ومصالحها .

محمد رفعت